فضيلة النسك

مكاريوس
الأسقف العام

اسم الكتاب: فضيلة النسك

الكاتب: الأنبا مكاريوس- الأسقف العام.

الطبعة: الأولى/ مارس ٢٠٠٦م.

المطبعة: دار نوبار للطباعة.

الغلاف: *LEVELS*

رقم الإيداع:

الترقيم الدولي:

قداسة البابا المعظم الأنبا شنودة الثالث

نيافة الحبر الجليل الأنبا أرسانيوس
أسقف المنيا وأبوقرقاص

فضيلة النسك

لعل النسك كفضيلة وكمصطلح قد أرتبط في أذهان الكثيرين بالراهب والحياة الرهبانية، كما ارتبط بالطعام والشراب والحرمان، ولكن المصطلح "نسك *Ascitic* " يعني الضبط وليس الحرمان، وبالتالي فالشخص الناسك هو الشخص القادر علي ضبط نفسه وأهواءه وشهواته.

وما يقال عن"الريجيم *Regime*" يقال أيضا عن النسك، فمدلول كلمة ريجيم لدي العامة هو "التخسيس" ولكن الواقع أنها تعني نظام ما يتبع، سواء بالنسبة للغذاء أو نظام الحكم أو الإدارة، ومن هنا فقد يكون الريجيم بالنسبة لشخص ما هو زيادة وزنه. فهو إذن نظام للضبط بشكل عام[1].

---

[1] كلمة *Ascetic* = إنكار الذات (*self denial*) أو ضبط النفس (*Self discphin*) والفعل *exercise* = ασκω – ασκεω = (تدرب، جاهد = *strive* = *train*). وجاءت الكلمة مرة واحدة في العهد الجديد: "

وكلمة الإسقيط والتي يُشار بها إلي أهم وأعظم بقعة رهبانية في العالم وفي التاريخ، لها علاقة بالنسك الذي نتحدث عنه الآن، فقد كان يطلق على هذه المنطقة (Ⲡⲓⲙⲁⲛⲛⲓⲁⲥⲕⲓⲧⲏⲥ بي ما إن ني أسكيتيس) أي موضع

النساك. ومن المُلفت أن من بين التسميات التي أُطلقت علي المنطقة (Ϣⲉϩⲏⲧ شهيت) والتي تعني ميزان القلوب، أي الموضع الذي تُوزن فيه القلوب. وفي تاريخ "بلاديوس"(١) يرد

لذلك أنا أيضاً أدرب (ασκεω) نفسي ليكون لي دائماً ضمير بلا عثرة من نحو الله والناس" (أعمال ٢٤: ١٦) وفي القبطية (ϯⲛⲁⲉⲣⲁⲥⲕⲓⲛ). أمّا أصل الكلمة ασκεω فهو ασιτος (حيث α = *without*) و (σιτος = *food* = *fasting* أي الصوم). الكلمة الثانية المستخدمة في الإنجيل وتحمل نفس المعنى هي روّض (γυμναζω) " روّض نفسك للتقوى" (١تيمو ٤: ٧) ومنها جاءت كلمة "جيمتريوم" أمّا في القبطية فهي: ⲁⲣⲓⲅⲩⲙⲛⲁⲍⲓⲛ (أي روّض).

(١) بلاديوس راهب من القسطنطينية جاء إلى مصر وعاش فيها ما يقرب من خمس سنوات، في مختلف أديرها، ودوّن ملاحظاته وكتب سير وأقوال عدد كبير من الآباء، ثم

أن بعض رهبان الإسقيط زاروا الأم سارة، فقدمت لهم طعاماً، فتركوا الجيد وأكلوا من الدون الرديء، عندئذ قالت لهم: "بالحقيقة أنكم إسقيطيون "والكلمة تحمل المعنيين: "نساك" أو ينتمون إلي موضع النساك (الإسقيط)..

فالفرق بين الفقير والناسك، هو أن الفقير يتمنّى ويرغب ولكنه لا يستطيع تحقيق أمنياته، بينما قد يقدر الناسك ولكن يتعفّف ويضبط نفسه، إنه الفرق بين الضبط والكبت، فالكبت هو شدة الاشتياق مع شدة الحرمان، في حين أن الضبط هو وجود الرغبة مع توافر الامكانيات لتحقيقها، ولكن هناك إرادة مستنيرة تضبط العلاقة بين الاثنين".

والقصة التالية تكشف لنا عن الفكر المستنير لدى الآباء فيما يتعلق بالنسك، فقد كان الأب سلوانس وتلميذه زكريا في زيارة لأحد الأديرة، وهناك قدّم لهما الرهبان فأكلوا وفي طرق عودتهما وجد التلميذ ماءا في الطريق، فلما أراد أن يشرب

أرسل مذكراته هذه إلى صديق له يُدعى " لوسيوس" فصار هذا التاريخ والتراث الهام يُعرف على نطاق واسع بـ التاريخ اللوزياكي" وهو المعروف الآن بـ بستان الرهبان.

منعه القديس لأن موعد الأكل لم يحن بعد !، ولما تعجب التلميذ بدعوى أنهما أكلا بالفعل منذ قليل، أجابه قائلاً: "لأجل المحبة أكلنا والآن لا نحلّ قانوننا".

والحقيقة أن الصوم في حد ذاته لم يكن هدفاً في حياة الآباء، ولكنه واحدا من الوسائط التي تعينهم في الطريق إلي الله، وذلك بالطبع بالنسبة للأصوام الخاصة وليس الأصوام الثابتة في السنة الليتورجية والتي يلتزم بها الكل، سواء في العالم أو الأديرة. فبينما كان شخص ما يُعاقب بأن يُخضع لصوم خاص بأمر الآباء فإن آخراً كان يعاقب بالمنع من الصوم! والهدف في الحالتين واحد، وهو علاج المجد الباطل أو الكبرياء، فقد تكبّر أحدهم بسبب نسكه، بينما ثقلت على الآخر أفكار النجاسة، فاحتاج أن يُخضع جسده وفكره (ويربط الآباء ما بين الكبرياء والشره والنجاسة).

في هذا يقول الآباء" الصوم يجعل الجسم يتضع" وتقول الام سارة: "إننا نفضل الطاعة على النسك، لأن هذا يجلب الكبرياء وأمّا تلك فتجلب الاتضاع". وقد يصنع الإنسان كل

شئ حتي ما يعد ثقيلاً عليه مادام برغبته هــو، إلا الطاعــة! والتي فيها يقطع هواه ويُحمل علي مشيئة آخر.... ونقرأ عــن القديس أثناسيوس الأجيوري (مؤسس رهبنة جبل أثوس فــي اليونان) أن أول أمر تلقّاه عند تقدمه للرهبنة، هو: اذبح هــذا الخروف وكُله، فأطاع في الحال !!!..

وفي أطار الإتزان في التدبير الروحــي يقــول الآبــاء "الطريق الوسطي خلَّصت كثيرين" ولاسيما إذا كنــا مبتــدئين فنحن نعطي الجسد احتياجه، ولكن احتياجه فقط دون أكثــر!! وقد نتجاوز هذا الحد قليلاً – في الأيام التي لا صــوم فيهــا– ولكن ذلك أيضا يكون بقدر، ويمكن وضع علامتــين لــذلك، الأولي تمثل "الحد الأدنى" والذي يجب ألا نقلّ عنه في الصوم، مطيعين ذلك الصوت الإلهي " فانه لم يبغض أحد جسده قط بــل يقوته ويربيه كما الرب أيضاً للكنيسة" (أف ٥:٢٩) والحد الأعلى الذي يجب ألاّ يتجاوزه في أيام الفطر، يلتزم فيه بقول الكتــاب أيضا "أقمع جسدك وأستعبده" (اكو ٩:٢٧) وقليلاً قلــيلاً ومــع التدرب ومع الإرشاد يقل احتياج الجسد من الطعام.

لعل هذا يناسب أكبر شريحة من الرهبان والراهبات أو المكرسات، فمنهم من يلتزم النسك الشديد –بالتنسيق مع مدبره الروحي بالطبع– ومنهم المتساهلون مع أنفسهم، أو قد يري مدبروهم أن يخففوا عن أنفسهم في فترة ما في أطار التدبيرالروحي العام لهم ...

وفي سيرة القديس باخوميوس نقرأ أنه عندما كان مضطراً للسفر لمدة طويلة طلب من الراهب المسئول عن المطبخ أن يهتم بالآباء حتى يعود، فلما عاد سأله عما فعله في غيابه، قال له أنه قرر أن يساعد الرهبان على حياة النسك وذلك من خلال إغلاق المطبخ ليتناولوا هم الخبز اليابس، بينما استغل هو وقته في عمل السلال حتى يوفر ثمنها للدير.

وهنا طلب إليه القديس أن يُحضر جميع ما صنعه من سلال ويجعلها كومة في ساحة الدير وكانت كبيرة جداً. وعندئذ أمر القديس بضرب ناقوس الدير، فجاء على الفور

جميع رهبان الدير فنظر القديس باخوميوس إلى السلال ثمّ إلى الراهب وقال له: لماذا أبطلت الثمرة الطبيعية للنسك ؟ ثم أمر بإحراق جميع تلك السلال أمام الرهبان(١).

ولكن دعوني أتكلم في شئ من الصراحة فأقول أن الرهبنة كانت أقوي ما يمكن عندما كانت قائمة علي التفرد لا التجمع، وبنظره سريعة علي التاريخ سوف نكتشف أن ضعف الرهبنة وثيق الصلة بحب المقتنيات (زيادة الموارد) فعندما كان الراهب يحيا في مغارته بمفرده كان ينعم بخبرة روحية شخصية مع الله، يهتم به ويهيّئ له مائدته ويرفع عنه المخاطر ويسكب في قلبه التعزية. وأتذكر أن أحد أولئك المتوحدين اختير للأسقفية، وبعد مرور فتره من الزمن لاحظ أنه لا يجد تلك التعزية القديمة، فبكي سائلاً الله عن السبب، فقيل له "لما كنت في مغارتك في الصحراء لم يكن لك غيري وكنت أهتم

(١) يقصد القديس أن الراهب عندما يُقدم إليه الطعام ثم يتخلّى عنه بإرادته يكون بذلك قد أثمر ثمرة النسك، فهناك فرق بين الناسك والفقير

بك، الآن قد أصبح هناك الكثيرين يهتمون بك"، ولذلك يقــول مار أسحق " التعزيات البشرية تمنع التعزيات الإلهية ".

كان الراهب يضع كل ثقته في الله ويجعــل عليــه رجاؤه، وكان الله في المقابل يهتم به ويصبح مسئولاً عنه "لأنه تعلق بي أنجيه أرفعه لأنه عرف اسمي" (مز ٩١:١٤)

ولكن الأديرة الآن أصبح لها أسوار وقلالي مغلقة جيــداً بأقفال حديثة!! وأصبح هناك خفراء وأحيانا رجال شــرطة .. وأتذكر أن القلالي قديماً لم يكن لها أقفال بحيث إذا دخل لــص فلن يجد ما يستحق السرقة !! وهذه علامــة جيــدة للراهــب الحقيقي، عندما لا يكون له ما يُجار عليه أو يظلم فيه !!.

أحب في هذا السياق أن أقول أن الكنيسة عامة والرهبنة بشكل خاص ليست مؤسسة، ليست مشروعًا كنســياً ولكنهــا حركة.. تيار *movment* . لقد ترك التلاميذ كل شئ وتبعــوا الرب (لوقا٥:١١و٢٨) ومن هنا فالرهبنة منهج إنجيلي، يسمع الراهب الصوت الالهي .. أذهب وبع .. ويقال اتبعني (مرقس ١٠:٢١ ولوقا١٤:٢٥-٣٣) ويقول مار اســحق:"أن الإنســان

الذي أقدم علي الرهبنة ولم يتغير أولاً ويكف عن أهتمام العالم وشهواته وملاذه فلن يستطيع أن يصير راهباً ولن يبلغ الفضيلة ولن يمكنه كذلك أن يقفه أمام سهام العدو وهي شهوات النفس".

روي أحد الآباء القصة الرمزية التالية فقال:

طلب راهب بإلحاح من الله أن يرشده إلي بقعة يحيا فيها بعيداً عن الناس، فأرشده إلي مكان منعزل فوق هضبة قي جبال لبنان، فصنع له كوخاً من فروع الأشجار وسكن فيه .. وما أن حل الشتاء حتي شعر بالبرد وتلفّت حوله من أعلي فلمح بعض أكواخ الرعاة، فنزل إليهم متوسلاً أن يعيروه غطاءا ففعلوا بفرح، فعاد إليهم بعد عدة أسابيع يشكو لهم من الفئران التي أتلفت الغطاء، فتأسفوا لذلك وأعطوه غطاءا آخر ..

وتكرر الأمر، وعندئذ اقترحوا عليه أن يدع قطاً يعيش معه لعله الفئران تهابه ! فوافق وحدث بالفعل أن تحولت عنه الفئران، ولكن ظهرت مشكلة أخري لم ينتبه لها ألا وهي

طعام القط ذاته !، ومن ثم نزل إليهم طالباً بعض **اللبن** ففعلوا وأعطوه، وكلما فرغ قسط اللبن حصل منهم علي غيره، وعادوا من جديد فاقترحوا عليه أن يعطوه شاة يحلبها كل صباح لكي يطعم القط الذي يطرد الفئران والتي كانت تتلف له الغطاء !.

ولكنه نسي أن الشاه نفسها تحتاج إلي الطعام فطلب هو من الأعراب فأعطوه فأساً وبعض البذور، وبدأ في استصلاح مساحة صغيرة من الأرض حوله لعله يحصل منها علي طعام الشاة المسكينة، والعجيب أن الأرض أعطت ثمرا وفيرًا جداً، مما شجعه علي استصلاح مساحة أكبر. ونجح مشروع الاستصلاح نجاحا مذهلاً، فتحول إلي مشروع ضخم يضم مساحة شاسعة من الأرض وما يلزم المشروع من مبان وأجهزة مستوردة ..

وجاء زائر ذات يوم ليطّلع علي منتجات (الشِركة!) وراح الراهب يرحب به كثيرا وينتقل به من مكان الي آخر، ويطلعه علي أنواع البقر المحلي والمهجن وعشرات الأنواع

من الجبن ومنتجات الألبان الأخرى! ثم عاد أخيراً إلي (مكتبه الفاخر!). ولما جلس الضيف تفحّص الراهب طويلاً ثمّ قال له: ألأجل هذا أتيت بك إلي هنا !!. والذي حدث أن السيد المسيح كان يفتقده، بينما ظن الراهب أنه يستقبل مستورد كبير ..

القصة رمزية طريفة .. ولكنها تبين كيف أن الإنسان كثيراً ما ينحرف عن هدفه ليتسع أفقياً، أو ليتحول الهدف الرئيسي إلي أهداف صغيرة متساوية !! وهكذا يبدأ شخص ما بالروح ثم يكمل بالجسد.

أنواع النسك:

ولكن النسك كفضيلة لا ينحصر في الطعام والشراب فقط، ما دمنا قد اتّفقنا علي أنه يعني **الضبط** بشكل عام، فهو ينسحب كمصطلح علي المقتنيات وعلي علاقات الراهب بالآخرين وعلي جوانب التدبير الروحي الداخلية الأخرى. و لنأخذ علي سبيل المثال نوع آخر من النسك مثل:

النسك في المعرفة:

من المهم جداً أن ننتبه إلي أن هناك فرقاً بين جهاز الكمبيوتر (وأكثركم له دراية الآن بهذه التكنولوجيا) من جهة، وعقل الإنسان من جهة أخرى، فإنه باستطاعتنا التخلّص من المعلومات التي تدفقت إلي هذا الجهاز بعمل " *formatting* " لها، في حين لا يمكن التخلص مما نكدس به العقل من مواد غير نافعة، من هنا فمن الضروري اختيار ما نقرأه وما نسمعه، وإلاّ فإن المساحة المتبقية من الذاكرة سوف تقل تدريجياً.. وعندما ننتبه إلي احتياجنا إلي مزيد من المعرفة

الروحية والفهم والتأمل، سنجد تلك الخبرات العلمانية المتكدّسة داخل العقل بمثابة عائق.

وفيما يتعلق بالذاكرة (أو القدرة علي الاستعادة) فإن كل ما نقرأه يدخل إلي العقل والذاكرة ويختلط بالمشاعر، ويمتزج بالكيان كله ويؤثر بشكل أو بآخر، فالكل ينصهر في بوتقة واحدة ليعطي شخصية بذاتها تتغير سماتها مع الوقت طبقاً لما تتعاطاه. في هذا يقول بعض الفلاسفة "عرفني ما تقرأه أعرّفك من أنت " أو بالأحرى: "عرفني ما تعيد قراءته أعرّفك من أنت!" ولذلك فمن المناسب أن تترهب (أو تتكرس) الفتاة ما بين سن العشرين والخامسة والعشرين (وبالنسبة للشبّان مابين ٢٥-٣٠) وقد تزيد سنوات قلائل لتتحرك مابين الثانية والعشرين وحتي الثامنة والعشرين.

لأن استعدادها في مثل هذا السن للطاعة والنسك والتعب يكون أكثر بكثير، ليس ذلك فحسب وإنما لكي يكون الذهن هادئاً خالياً، إلا من بعض ما جناه من البيئة (الأسرة) ومن المجتمع الصغير(مجتمع الدراسة والكنيسة) وهذان المجالان لا

يمثلان خطورة كتلك التي يمثلها المجتمع المفتوح الملئ بالمتناقضات والمفارقات والانحرافات والقيم المهدورة والمفاهيم المغلوطة والخبرات الرديئة. فإن كنا نطالب الراهب أو المكرس بأن يختبر الحياه العملية لفترة وجيزة، فإن ذلك ليس ليكتسب تلك الخبرة وانما ليجرب ذاته في العمل، فقد يستهويه ذلك الخط الطبيعي للحياة.

من كل ما سبق أري أن يختار الإنسان ما يقرأه بعناية شديدة، وقد يجد ذاته متجهاً نحو قراءة مادة بعينها مثل الجرائد والمجلات والأوراق الملقاة علي الطرق، أو تلك التي تصله مغلفة بعض الملابس أو الأطعمة .. عليه التنسك في ذلك أيضا. وضبط نفسه أمام بعض العناوين والمانشيتات الملفتة في تلك الأوراق !!.

فهناك بعض ممن كانوا مداومين علي قراءة الجرائد اليومية، والبعض الآخر ممن كانت له قراءات أدبية أو سياسية وغيرها، قد وجدوا صعوبة في التخلّي عنها والزهد فيها بعد التحاقهم بالأديرة. بل أتذكر أنه من بين النصائح التي تلقيناها

قي بداية حياتنا الرهبانية هي ألاّ نقرأ الكتب اللاهوتية وكتب التفاسير، حتى لا يُحارَب الراهب بالرغبة في التعليم وحب الرئاسة، ليس من خلال خروجه للخدمة من الدير فحسب، وإنما لكي لا يمارس ذلك مع اخوته في الدير، بل كنا نتسلم اللاهوت عملياً خلال الصلاة النقية وحب الآخرين فالثالوث هو سر الحب .. واللاهوتي هو "من يصلي حسنا" حسبما يقول الآباء..

ونقرأ في تاريخ بلاديوس أنه انعقد مجمع في الإسقيط (ربما لمناقشة المشكلة الأوريجانية) في ذلك المجمع وقف الأب " إيفاجريوس البنطي" وتكلم – وكان عالماً وفيلسوفاً ضليعاً – فلما انتهي من كلامه وقف أب الجبل وقال له: " نحن نعلم يا أبانا أنك لو كنت في بلدك لصرت أسقفاً أو رئيساً علي كثيرين، ولكنك هنا مثل غريب، فأجاب باتضاع قائلاً: "حقاً إنها مرة واحدة تكّلمت فيها وإن شاء الله لن يكون لها ثانية"..

النسك في السلوك:

أتذكر أيضا أننا كنا ندرب أنفسنا في السنوات الأولي للرهبنة، كيف لا نلتفت إلي الخلف متي سمعنا صوتاً أو حركة أقدام خلفنا في إحدى الطرقات مثلاً، أو صوت ماكينة أو زائرين أو عمال وكنا نقول لأنفسنا: "ماذا يعنينا في ذلك !؟ هم يعملون عملهم ونحن أيضاً نعمل عملنا".

وذات مرة زار الأب اسحق أحد الشيوخ، وهناك سمع بعض الأصوات، فسأل الشيخ هل يوجد دواجن ههنا يا أبي؟ فأجابه بعتاب قائلاً " لماذا تجبرني علي الكلام يا اسحق، الذين مثلك فقط هم الذين يسمعون مثل تلك الأصوات !! ".

ولكن إياك أن تفعل ذلك رغبة في مديح الآخرين، إن هذا يقودنا إلي الحديث عن نوع أخر من النسك:

النسك في محبة الأخرين لنا:

فإن البعض منا قد يصنع الخير ليس لأجل الله وانما لحساب الآخرين! ليس لمجد الله وانما ليرضى عن نفسه، فقد

ينتهج البعض مثلاً اللطف طريقة في التعامل مع الآخرين، ليس كثمرة خالصة من ثمار الروح القدس (غلاطية ٢٢:٥) وإنما لأجل الحصول علي المديح فقط، حتى يُقال عنه أنه وديع أو لطيف أو محب، أو يُظهر آخر قدراً كبيراً من الاحتمال، والتحلّي بابتسامة مشرقة دائماً، مهتمّ في ذلك برأي الآخرين فيه !..

حقيقي أن الكتاب يوصينا بأن نعتني بأمور حسنة قدام الناس(رومية ١٧:١٢) وأن يري الناس أعمالنا الصالحة فيمجدوا أبانا الذي في السموات، ولكن المفروض كما هو واضح أن يكون الظاهر في الخارج هو انعكاس لما في القلب، والحرص كذلك ألاّ نُعثر الآخرين ، لاسيما الضعفاء منهم وغير المستنيرين. فإن لم يكن الأمر كذلك فإنه وبينما يُوحي الظاهر بالإتضاع والمسكنة والتسامح، تكون خطية الكبرياء رابضة في الداخل باطمئنان.. إذ يصلها غذاؤها بانتظام !!.

يقول القديس بولس " لأنه ليس من مدح نفسه هو المزكى بل من يمدحه الرب" (٢كو١٠:١٨) ويقول الآباء "هوذا الناس

يموتون وتموت معهم كراماتهم". أقول ذلك لنتخذ حذرنا ممن تأتينا منهم الكرامة والمجد الباطل، وإن كانت المشكلة لا تكمن في مديح الناس لنا فهم بسطاء أنقياء ينظرون إلينا باعتبارنا ملائكة.. ولكن الخطورة تكمن في قبولنا للمديح وسعادتنا به والسعي إلي المزيد منه ..

هكذا علينا أن نتخلّى عن حب المديح والكرامة ونتنسّك فيه، غير مبالين برأي الآخرين فينا، وإلا فإن مسيرتنا ستتعطّل، ولماذا نسعى بدأب نحو رأي الآخرين فينا .. أليس الأولي بنا أن نهتم برأي الله فينا .. أليس من الخطورة أن تكون الأولوية لحكم الناس، ألم يقل لنا السيد المسيح بفمه الطاهر: " ويل لكم إذا قال فيكم جميع الناس حسناً "(لوقا ٦:٢٦) أي أنه إذا استطعت الحصول علي تأييد جميع الناس ومدحهم فأنت منافق، إذا استطعت التلوّن بجمع الألوان وإرضاء كافة الاتجاهات والأمزجة. تقول الأم سارة:" للناس مشيئات كثيرة، فإن أنا أردت أن أرضي جميع الناس،سأجد ذاتي تائهة على باب كل أحد"!

وعندما صرح القديس تادرس تلميذ القديس باخوميوس، بأنه علي الإنسان أن يكون "مكوراً.. لا ذو قرون أو مربع" فقد قصد أن يكون الإنسان سلساً، سهل التعامل وسهل الكسب، لطيف المعشر .. لا أن يكون مسوقاً بكل ريح ..

هناك أمران علينا الالتزام بهما في هذا الاطار:

أولهما: ألاّ نُسيء إلي أحد أو نجرح إنسانا.

ثانيهما: ألاّ نشغل أنفسنا بكم من الآخرين يحبوننا وكم يكرهوننا (أو برأي الناس بصفة عامة) أي "لا تجعل سلامك في أفواه الناس".

بل وعلي العكس من ذلك، فلقد سعي الكثير من الآباء إلي إظهار ما يحتقرهم الناس بسببه، مثل القديس بيمن والذي تظاهر بالعته والجنون أمام الوالي والذي حضر لزيارته والتبرك منه .. ومن الآباء من تعمّد أن يأكل في فترة الصوم ..إلخ ولكن علينا كمبتدئين ألاّ ننتهج هذا التدبير لئلا يأتي بنتيجة عكسية، فهي طريقة محفوفة بالخطر لاتناسب قامات المبتدئين.

كتب يوحنا كاسيان عن القديس بفنوتيوس والذي كان يعيش في دير بالفرما (بالقرب من بورسعيد) أنه لما أصبح معروفاً، فكَّر في طريقة ينجو بها من تقاطر الزائرين عليه، ففكر أولاً أن يلزم قلايته، غير أنه خشى أن يتجمهر الناس حولها ويجبرونه علي الخروج منها، ثم عاد وفكر في ترك الدير إلي آخر، ولكنه عدل عن الفكرة خشية أن يكتشفوا مكانه الجديد فيتبعونه إلي هناك.

وفي النهاية اهتدى إلي فكرة عجيبة ألا وهي أن يتخفي في زى رجل علماني متجهاً إلي مكان أخر! وبالفعل اتجه إلي صعيد مصر ومشي طويلاً حتى وقف بباب أحد أديرة القديس باخوميوس، وقرع ناقوس الدير فخرج إليه الراهب البواب مستفسراً، فأخبره بأنه شخص طالت غربته في العالم ويود الأن أن يقضي بقية حياته كراهب (وكان قد قارب الستين من عمره) ولكن الراهب اعتذر له بسبب كبر سنه، ثم تركه وأغلق الباب دونه، ومن بعد يومين فتح الراهب الباب ليجد الأب بفنوتيوس ما يزال جالساً بجوار الباب، فتعجب لذلك،

وعاد فألحّ عليه كثيرا في الالتحاق بالدير ولو كواحد من العمال، وعندئذ وافق الراهب، وألحقوه بالعمل في حديقة الدير، فعمل فيها بمسكنة وطاعة لراهب حديث السن.

وفي ذات يوم وبينما كان راهب من منطقة الفرما في زيارة للموضع، لمح الأب بفنوتيوس في حديقة الدير فعرفه في الحال.. رغم أنه كان في ملابسه العلمانية. وهنا توسل إليه الأب ألاّ يخبر من بالدير ولكنه كان أسرع منه حين أبلغهم ، وقد بادروا بدورهم بالاعتذار إليه محتفين به. فلما قرر مغادرة الدير شيعوه بالدفوف والبخور. وهرب من ثم إلي المغارة التي كان يسكنها القديس جيروم بجوار بيت لحم، ولكنهم أعادوه ثانية إلي الفرما حيث تتيح هناك بعد زمن قصير.

إن الكبرياء الداخلية تغتذي علي الكرامة الخارجية، والتي يقبلها الإنسان ويسمح لها بالمرور إلي الداخل .. لذا فعلينا رفض كل كرامة تأتينا من العالم، فنحن أكثر من يعرف

ضعفاته ونقائصه، وأن الله في تحننه قد ستر عليه ولم يفضحه أمام الآخرين. قال الفيلسوف **فليقطن** مؤنباً الاسكندر الأكبر:" إن حياة هذه نهايتها الزهد فيها أولى"...

حب القنية:

إذا ما إلتزمنا المنهج الأصيل حسبما تسلمنا من الآباء، فإن التجرد هو سمة المسيحي الحقيقي، إذ يكتفي من الطعام بما يسد الرمق، ومن الثياب ما يستر عريه، ومن حطام الدنيا بما هو ضروري فقط، بل ومقتنياته بكاملها إذا سرقت فلن يكون هناك ما يحزن عليه، فالمهم هو الإنسان نفسه .. محتواه الداخلي .. وليس ما يجمعه حوله مثل الغني الغبي، فالغني الحكيم هو ذاك الذي تعنيه محبته للمسيح ومحبته للآخرين وزينته الداخلية، وأما الغبي فهو الذي يجعل رجاءه واتكاله علي غني العالم.

في دير البرموس عاش راهب يدعي " الأب تادرس الأنبا بولا " هذا كان يحتفظ بصندوق خشبي صغيرخارج قلايته، وكان الرهبان يضعون له فيه الطعام وأنصبته مما كان

يوزع علي الآباء من بركة، وكان هو يترك ما فيه حتي يفسد في أغلب الأحوال، فإذا أراد أن يأكل شيئاً، كان يخرج ويأكل بعضاً مما تُرك له وهو واقف في مسكنة، إذ لم يكن يُدخل قلايته طعاماً..كان له في قلايته عملاً أهم!.

أتذكر أيضا أنني كنت في زيارة راهب في قلايته، وهناك لاحظت أنه لا يمتلك كتبًا سوى واحد أو اثنين يضعهما فوق الحصير ليقرأ فيهما، فلما سألته عما إذا كان يحتفظ بمكتبة في قلايته، أجاب بأن كل كتاب يوجد في قلايته ولا يقرأ فيه فهو شاهد عليه ودائن (ديان) له!!. وقديما بكَّت أحد شيوخ الرهبان راهباً لأنه كان يحتفظ بالكثير من الكتب (المخطوطات) في قلايته، فقال له: لقد أخذت قوت الفقراء وملأت به طاقات قلايتك!!.

وكلما استنار الإنسان أو المكرس أو المسيحي بشكل عام، وصار ممتلئاً من الداخل فإن ذلك سيجعله مع الوقت يزهد فيما حوله من حطام هذا العالم يروي قداسة البابا شنودة الثالث القصة التالية عن حب القنية فيقول: تنيّح أحد شيوخ

الرهبان، وكانت قلايته ممتلئة بأشياء كثيرة بعضها ضـــروري والأخر عادي وغير ذي أهمية، وما أن دفن الأب في طافوس الدير، حتى قال أب الدير للآباء: من له احتياج إلي شئ مـــن هذه القلاية فليأخذه، وفي دقائق معدودة كان أكثـــر الرهبـــان عائدون إلي قلاليهم وفي يد كل منهم شيئا علي سبيل البركـــة من القلاية .. وهكذا لم تمر ساعات قلائل علي نياحته حتـــي كانت قلايته قد أصبحت خالية تماماً من محتوياتهـــا، ليتـــولي البعض تنظيفها وإعدادها لراهب آخر يسكنها !!.

أحب أن أقول أن الله يستخدم معنا طريقتين فيما يتعلق بالاحتياج:

أولهما: تلبية الاحتياج.

ثانيهما: إسقاط الاحتياج.

في الأولي يلبي لنا الاحتياج من طعام وشراب وأمـــور أخري، وللرهبان في هذا المجال خبرات لاحصر لها يروونها بفرح وتأثر، وذلك علي مدار تاريخ الرهبنة، فكيف يتخلّي الله عن قوم تركوا العالم لأجله ولا يكفل لهم قوتهم ...وفي الثانية

يجعل الراهب يرتقي إلي الحد الذي لاينشغل فيه بطعام أو شراب، أو شيء من أمور هذا العالم الحاضر .. فقد كانت خبرة الآباء في الصوم قديماً هي الانشغال بالطعام بما هو أهم، فكان الوقت يمر في الصلاة والتأمل والعمل والتسبيح ليكتشف الراهب في نهاية اليوم – وربما يومين– بأنه لم يأكل، ومن ثم يتناول البسيط من الطعام لسد الرمق فقط .. وهكذا الحال بالنسبة للمقتنيات ..

لقد عاش الأب عبد المسيح الحبشي في مغارة بالقرب من دير البرموس لمدة ثماني وثلاثين سنة دون أن يكون لها باب أو شباك، وعندما عرض القمص أنطونيوس السرياني (قداسة البابا شنودة) أن يصنع لها باباً، استنكر الأب عبد المسيح قائلاً: هل يصنع الذئب لمغارته باباً!! أنا مثل الذئب .. فلا تخشوا علي من الذئاب ..

كما عاشت القديسة مريم المصرية في البرية عارية .. وكذلك القديس أنبا نفر السائح .. والراهبان اللذان تقابل معهما القديس مقاريوس عند البحيرة ...

ونقرأ في تاريخ بلاديوس أنه قد جاء راهب إلي كنيسة القلالي، وكان يرتدي غطاء رأس متدلياً علي كتفيه، فلما رآه أنبا اسحق قس القلالي، تبعه قائلاً: "هنا يعيش رهبان، ولكنك رجل العالم فليس لك مكان للعيش هنا"..

إن تكدس صوان الملابس، أو أدراجنا بما يزيد عن الحاجة هو ضد الايمان ..الايمان بأن الله هو الذي يعولنا... أليست الحياة أفضل من الطعام ... أليس الجسد أفضل من اللباس .. فالذي وهب الحياة وهي غالية قادر أيضا أن يهب الطعام لأنه أبسط .. وكذلك الثياب للجسد... يقول القديس بولس:" كفقراء ونحن نغني كثيرين ..كأن لا شيء لنا ونحن نملك كل شئ"(٢كو٦:١٠)

في كتاب عن الصلاة، وردت قصة عن راهب عجوز في جبل أثوس، مر به كاهن يزور الدير، فوجده ينقر

بشاكوش صغير وقلم من الحديد في صخرة صلدة، فلما سـأله عما يصنع أجابه بأنه ينوي أن يحفر حفرة حتي يتجمع فيهـا الماء متى نزل المطر، لأنه عطش في السنة الماضية !! وكان الرجل ضعيف البنية والصخرة صعبة، وحتى إذا نجح في ذلك فكيف سيحتفظ بالماء داخلها لموسم كامل ...

ولعل السطور القادمة تبلور وتلخص لنا ماهيـة الحيـاة الرهبانية، كما عاشها الآباء الأول وسلموها لتلاميـذهم، فقـد ورد في بستان الرهبان عن القديس بيصاريون:

" أنه كان كطيور السـماء، وكأحـد وحـوش البريـة، وكائنات الأرض الزاحفة، أكمل حياته في سكينة بلاهم، ولـم يهتم قط ببيت، ولا خزن طعاماً، ولا اقتني ملبساً أو كتاباً، بل كان بجملته حراً من الآلام الجسدانية، راكباً فوق قوة الإيمان، صائراً بالرجاء مثل أسير الأمور المنتظرة، طائفاً في البراري كالتائه، عارياً تحت الأهوية، وكان يصـبر علـي الضـيقات مسرورا ".

أخيرًا:

تمسكوا بالمسيح ففيه الكفاية وهو قادر أن يشبع قلوبكم، ويجعلكم في غنى عن كل ما في العالم من مغريات، فالجوع الداخلي لن يشبعه إلاَّ المسيح صاحب كنوز الحكمة، ففيه الراحة التي نلتمسها، والسلام الذي ننشده، والفرح الذي نفتقده، والطمأنينة التي نشتهيها. وأما أموال هذا العالم الزائل فلن تقدر أن تحقق لنا ما نودّ أن نبلغه. نقول في أبصالية يوم الأربعاء:

" **إن كنّا فقراء من أموال هذا العالم وليس لا شيء لكي نعطيه صدقة. فلنا الجوهرة اللؤلؤة الكثيرة الثمن، الاسم الحلو المملوء مجداً الذي لربنا يسوع المسيح. ليست أموال هذا العالم الزائل التي نطلبها بل خلاص نفوسنا بتلاوة اسمه القدوس** ".

المنيا – في الصوم المقدّس ٢٠٠٥م.